المعجزة الخالدة

د. محمد دودح

المستشار العلمي بالهيئة العالمية

للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لا يَعرف التاريخ غير القرآن الكريم كتابا يُنسب للوحي رددته حتى ألسنة الصغار غيبًا وتناقلته الأجيال محافظةً على قراءاته منذ العهد النبوي، وليس تباين القراءات إلا من باب التيسير في ألفاظ يسيرة مراعاةً لتباين ألسنة الصحابة عند نزول القرآن الكريم، بينما لا يستطيع أي قسيس أن يردد الأسفار غيبًا من أي إنجيل وأي ترجمة شاء، وصدق القائل مرارًا في كتابه لتطرق الحجة الأسماع الواعية: ﴿وَلَقَدْ يَسّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذّكْرِ فَهَلْ مِن مّدّكِرٍ﴾ القمر ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠، والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المحفوظ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر ٩، فقد سجله كتبة الوحي في حينه وتم جمعه في صحيفة واحدة جامعة بقيت هي المرجع الوحيد منذ عهد الصحابة؛ بالإضافة إلى الترتيل Recitation غيبًا لجميع أجيال الأمم التي بلغها الإسلام، وهي ميزة فريدة لم ينلها سواه، وهو الكتاب الوحيد المتحدَّى بإعجاز مبانيه ومعانيه، فقد كان الجواب على طلب العرب عند تنزيله آية حسية شاهدة أن جُعل هو نفسه آية التحدي؛ خاصةً لاشتماله على أسرار الخلق شهادةً على نزوله بعلم الخالق في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مّن رّبّهِ قُلْ إِنّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَإِنّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىَ عَلَيْهِمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىَ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَىَ بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ العنكبوت ٥٠-٥٢.

والإنباء بالغيب سمة العالم بالمستقبل المجهول لا عن تكهُّن واحتمال؛ قد يُصيب وقد يخيب، وإنما عن علم بالمُقَدَّر الذي لم يقع بعد، ولا يملك أحد سمة المعرفة بالقدر تلك إلا المُقَدِّر المُقْتَدِر العالم وحده سبحانه وتعالى بالواقع وما لم يقع بعد، ولذا كانت الأنباء العلمية في القرآن الكريم قبل عصر الكشوف العلمية ومعاينة الحقائق الخفية شهادةً قاطعةً بالوحي للنبي عليه الصلاة والسلام من العليم الحكيم، لأنه لا مصدر بشري لتلك الحقائق؛ خاصةً في بيئة بدوية تسودها الأمية وفي عصر تعزله أكثر من عشرة قرون عن عصر الابتكارات والكشوف العلمية.

ويُعَبِّر القرآن الكريم عن الحقائق العلمية بتلطف قد يبلغ التلميح، فلا يعارض جهارًا معرفةً سائدةً تُخالف الواقع فيلفت عن غرض توحيد الخالق؛ وتلك وحدها مأثرة في البيان، ويَسُودُه التعبير بالتضمين والأمثال التصويرية المستمدة العناصر من بيئة التنزيل بيانًا لحالة معنوية بأخرى حسّية مستمدة من الواقع المجهول زمن التنزيل، وينتظم في زُمر يتآلف مضمونها مع جَرْس منطوقها؛ تُيَسِّر الحفظ وتُخاطب الوجدان والضمير فتتجلى جملة مآثر في البيان، فضلا عن دلائل العلم بخفايا التكوين؛ خاصةً مع تعدد المجالات العلمية تأكيدًا للوحي وتثنية النبأ تأكيدًا للقصد.

ولا يُلام مُفَسِّر قبل عصر العلم فاتته دلالة علمية مُدَّخَرَة في القرآن الكريم؛ فلم تَكُن الحقائق قد كُشِفَت بعد، والتعبير معلوم الألفاظ لكن الكيف مجهول لم يُعْرَف بعد، والاحتمالات متعددة تَنْتَظِر الزمان أن يُجَلِّيهَا للعيان فتستقر، وتلك وحدها فَرِيدَة تُضاف لمآثر القرآن الكريم، يقول العلي القدير: ﴿لِكُلّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنعام ٦٧.

وقد تحدث القرآن الكريم في مجالات علمية متنوعة فأيدته جميع الكشوف بلا دلالة يقينية واحدة تعارض حقيقة علمية ثابتة، ومن الأمثلة في مجال العلوم الطبية دلالة القرآن الكريم على وجود تركيبات مجهرية دقيقة في الجلد تقوم بوظيفة الإحساس Sensation كالإحساس بالألم؛ إذا دمرت عند اكتمال حريق الجلد ونضوجه يتعطل نقل الإحساس بالألم ولا سبيل لإعادته سوى بتجديد الجلد وتبديل التالف، يقول العلي القدير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ النساء ٥٦.

والجلد بالفعل في المعرفة الطبية الحديثة هو من أهم أجزاء جسم الإنسان إحساساً بالألم نظراً لأنه الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة، ولو استعرضنا درجات الحروق التي يصاب بها الإنسان لوجدنا أن هناك حروقاً من الدرجة الأولى وحروقاً من الدرجة الثانية، ثم حروقا من الدرجة الثالثة تبعا لطبقات الجلد الرئيسية الثلاث: البشرة والأدمة والنسيج تحت الجلدي، ويعاني المصاب بالدرجة الثانية من احتراق الجلد من آلام شديدة وزيادة مفرطة في الإحساس بالألم نتيجة لإثارة النهايات العصبية المكشوفة، بينما أذا أصيبت الطبقات الثلاث واحترق الجلد كاملا يزول الإحساس بالألم، وما كان بوسع بشر قبل اختراع المجهر وتقدم علم التشريح أن يعرف هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً مضت.

والمُتَتَبِّع لأنباء الغيوب في السنة النبوية التي لا يقف عليها في القرن السابع الميلادي إلا الخالق وحده سبحانه وتعالى يجد أنه أوقف نبيه عليه الصلاة والسلام على الكثير منها لتكون دلالةً على صدقه؛ وإن لم تبلغ كثرة وتنوع أنباء الغيب في القرآن الكريم، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام مرارًا عن انتشار الإسلام وظهوره على الأديان وهو أمر لا يقطع فيه مجازفةً بتخمين، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في المأثور: (إن أمتي سيبلغ ملكُها ما زوي لي منها وأعطيتُ الكنزين الأحمرَ والأبيض)، قال النووي: "وهذا الحديث فيه معجزاتٌ ظاهرة وقد وقعت كلُّها..، والمراد كنزي كسرى وقيصر..، فقد أعلمه الله بانتشار دينه"، وقوله: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين)، ولم تَمْضِ بالفعل في تاريخ الإسلام عقود قليلة إلا وبلغ آفاق الأرض، ولا يقع هذا بسيف وإنما رحبت به كل الأمم لعقيدته البسيطة وتشريعاته السمحة وخطابه للفطرة والضمير واحتكامه للعقل ودعوته للعدل؛ وإلا كيف تُفسِّر دخول أمم كالمغول في الإسلام وهم الغازون المنتصرون، وكيف تُفسِّر تزايد أعداد المسلمين الغربيين اليوم وهم الأكثر حضارةً وتقدمًا تقنيًّا.

ومن دلائل النبوة قوله عليه الصلاة والسلام مُتَنَبِّئًا قبل معركة أحد: (يُقتل رجل من أهل بيتي ويُقتل أناس من أصحابي)، فصدقت الأحداث النبوءة حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب وسبعون من أصحابه، ومن إخباره بالمغيبات برهانًا على أنه كان موصولا بالوحي فيما أنبأ في حديثه غير القرآن الكريم نبوءته عليه الصلاة والسلام بفتح مصر في رواية مسلم: (إنكم ستفتحون مصر..، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمةً ورحماً)، ومما بشّر به صلى الله عليه وسلم فتحقق بعده كما أخبر تمامًا فتح اليمن ثم الشام ثم العراق بنفس الترتيب وانتقال المسلمين إلى تلك البلاد تاركين المدينة في قوله ﷺ: (تُفتح اليمن..، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح الشام..، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراق..، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)، قال النووي: "قال العلماء في هذا الحديث معجزاتٌ لرسول الله ﷺ لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم وأن الناس (ينتقلون) بأهاليهم إليها ويتركون المدينة وأن هذه الأقاليم تُفتح على هذا الترتيب (ووقع) جميعُ ذلك كذلك".

وقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ بغزو أُناس من أمته في البحر ومعهم الصحابيَّة أم حرام بنت ملحان خالة الصحابي أنس بن مالك وزوجة الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنهم جميعاً وإحدى خالات الرسول ﷺ من الرضاع، وذلك

في رواية البخاري: "وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله..، قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين"، وكانت بالفعل أول شهيدة في البحر عام ٢٧ هـ في زمن معاوية بن أبي سفيان، وما زال قبرها قائمًا في جزيرة قبرص إلى اليوم يشهد لحديثه عليه الصلاة والسلام بالوحي، و"النبوة" في الأصل تعني النبوءة بغيبي يُعلمه اللهُ تعالى للنبي، فكيف يُسْتَبْعَد إذن إخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات العلمية!.

ومن أظهر الأدلة على الوحي في السنة النبوية قوله ﷺ في رواية مسلم: "لا تقوم الساعة.. حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا"، فهو يتنبأ عليه الصلاة والسلام بتغير مناخي يُصيب الأرض يرجع فيه الحزام الصحراوي الذي يشمل شبه الجزيرة العربية إلى سابق عهده من وفرة الأمطار وكثرة الأنهار وازدهار المراعي والمزارع والرياض، ولا يُتصور أن تصدر تلك النبوءة مجازفةً بالتخمين في صحراء جزيرة العرب التي تخلو حتى اليوم من نهر واحد ويسود أغلبها الجفاف ويمتد جنوبها إلى الربع الخالي القاحل متاهةً للعابر ومهلكًا لمن لم يتزود بالزاد والماء، وذلك قبل أن يتحدث أحد اليوم عن تغير مناخي وشيك يصيب الأرض وقبل أن يكتشف البترول في جزيرة العرب وعلى أطرافها ليشهد لمحمد ﷺ بالنبوة الخاتمة لأنه بقايا لمواد عضوية مطمورة ومخلفات غابات قديمة متحللة، وقبل أن يُعثر على أشجار متحجرة في مناطق قاحلة، وقبل أن يُكتشف باستخدام الرادار حديثًا نظام الأنهار القديم في جزيرة العرب، وقبل أن تُعرف خريطة بطليموس التي رسمها في القرن الثاني قبل الميلاد وتظهر فيها بوضوح أنهار عديدة تصب في البحر الأحمر غربًا والمحيط الهندي جنوبًا والخليج العربي شرقًا، ولا تفسير إلا فيض الوحي في السنة النبوية كما في القرآن الكريم؛ شهادةً من الله تعالى العليم وحده بكل الأسرار ودليلا على صدقه عليه الصلاة والسلام.